العميد القضى لجامعة فؤاد :

كيف نشأت أول جامعة فى مصر

للاستاذ سيد محمد كيلانى

إن فكرة إنشاء جامعة فى مصر فكرة قديمة اختمرت فى رؤوس بعض المفكرين المصريين . وقد كان يعقوب باشا أرتين أحد وكلاء وزارة المعارف السابقين أول من تناول هذا الموضوع وكتب فيه . ففى سنة ١٨٩٤ أخرج كتاباً عنوانه « القول التام فى التعليم العام » ومما جاء فيه قوله « ... ومتى وقع الإقرار على هذا التعديل المتحتم وتم إخراجه من عالم القول إلى عالم الفعل وأصبحت مدارسنا العالية مؤسسة على أسلوب منتظم وقائمة على قواعد متينة يقضى بها العقل ، حينئذ تتجه الرغبات إلى ضمها كلها (المدارس العالية) بعضها إلى بعض وجعلها مدرسة كلية جامعة . وبما أن العناصر اللازمة لإنشاء هذه المدرسة الكلية تكاد تكون متوافرة لدينا بتمامها فعندما نتمكن من الحصول على الأساتذة القديرين على التدريس فى هذه المدرسة الكلية يكون من السهل وصولها إلى درجة الاستعداد والكمال ، فتكتسب البلاد فوائد عظمى من حيث تقدم العلوم والآداب والفلسفة النظرية والعملية وما يحدث من السنن والتقاليد وبما يظهر من روح الموالاة فى العمل وبالمزاحمة والمسابقة اللتين تتولدان بالطبع بين مدرستنا الكلية ونظائرها الأخرى . »

غير أن سياسة المحتلين كانت ترمى إلى حرمان المصريين من كل تقدم أو رقى ، فكان المستشار المالى من ناحية ومستشار المعارف (دنلوب) من ناحية أخرى ينفذان بكل دقة وأمانة الأوامر الإنجليزية الاستعمارية القاضية بالحيلولة بين الشعب المصرى وبين التعلم حتى يعيش جاهلا فيسهل عليهم قياده ويهون إذلاله واستعباده

ولما نشأ الحزب الوطنى وكثرت الصحف أخذت الأصوات ترتفع من كل جانب مستنكرة سياسة المحتلين التى حرمت الأمة من نور العلم . وكانت حملات الكتاب والشعراء فى ذلك عنيفة قاسية . ولكن المحتلين لم يغيروا خطتهم المرسومة فرأينا المستشار المالى يكتب فى تقريره الذى أصدره سنة ١٩٠٤ ما نصه « إن الحكومة لا تملك المال للانفاق على تعليم الأمة وإنما هى تعلم فى مدارسها العدد الذى تحتاج إليه فى وظائفها فقط . »

وفى سنة ١٩٠٥ ظهرت فى الصحف فكرة إنشاء جامعة مصرية ؛ وأخذ الكتاب يحررون المقالات فى التنويه بمزايا إنشاء هذه الجامعة . فخشى اللورد كرومر أن تخرج هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، فأراد أن يقضى عليها وهى فى بدايتها . فشد رحاله إلى الفيوم وألقى خطبة فى أعيان تلك المدينة قال فيها « ... إن التعليم الذى تحتاج إليه الأمة المصرية هو تعليم الكتاب فقط . » وحث الأعيان والحكام فى جميع جهات القطر على إنشاء الكتاتيب فجمعت آلاف الجنيهات ، ولكن لم ينشأ من الكتاتيب إلا عدد يسير لم يلبث أن حول إلى حظائر للمواشى والأغنام

كانت سياسة المحتلين هذه حافزاً للمصريين على إنشاء المدارس والعمل على نشر العلم بين أبناء الشعب ، فظهرت الجمعيات الخيرية كجمعية المساعى المشكورة بالمنوفية ، وجمعية العروة الوثقى بالإسكندرية ، وقد جدتا فى فتح المدارس وتعليم الفقراء فيها بالمجان ، وحذت حذوهما الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية فى كثير من جهات القطر المصرى

إلا أن فكرة الجامعة بقيت حلماً من الأحلام حتى قام أحد أعيان بنى سويف فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٦ وأعلن أنه تبرع بمبلغ ٥٠٠ ج . م لإنشاء جامعة ودعا المصريين إلى التبرع لهذا العمل الجليل . أما هذا الرجل فهو مصطفى بك كامل الفمراوى . وفى شهر أكتوبر من تلك السنة اجتمع فى منزل سعد زغلول بك (باشا) بعض الأعيان والوجهاء وشكلوا لجنة لتسلم التبرعات سموها « لجنة الجامعة » وقد قرروا إنشاء جامعة تسمى « الجامعة المصرية » وأصدروا نداء جاء فيه

« إن جميع الذين يشعرون منا بنقص تربيتهم العقلية يرون من الواجب أن التعليم يجب أن يتقدم خطوة فى بلادنا نحو الأمام وإن أمتنا لا يمكنها أن تعد فى صف الأمم الراقية لمجرد أن يعرف أغلب أفرادها القراءة والكتابة أو أن يتعلم بعضهم شيئاً من

الفنون والصناعات كالطب والهندسة والحاماة ، بل يلزمهم أكثر من ذلك . »

وكان من رأى هذه اللجنة أن تشمل الجامعة التعليم بأنواعه الثلاثة : الابتدائى والثانوى والعالى . ولكن نظراً لتعذر تنفيذ ذلك كما ذكرت ولوجود التعليمين الابتدائى والثانوى رأت أن تكتفى مؤقتاً بالتعليم العالى الذى لم يكن له وجود فى ذلك الوقت

وقد تبرع أعضاء اللجنة بمبلغ ٤٤٨٥ ج . م ثم أخذ الناس يبعثون بالتبرعات من جهات مختلفة : وقد دبت روح الغيرة الوطنية فى النفوس . انظر إلى ما كتبته صحيفة اللواء فى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٦ وهو : « دبت فى نفوس الناشئة روح الشعور الشريف نحو مشروع الجامعة المصرية حتى أن من التلامذة من يقتصد من مصروفه الخاص بعض الدريهمات فيتبرع بها لذلك المشروع فلقد جاءنا كتاب يفيد أن حضرة أحمد افندى رأفت التلميذ بمدرسة راتب باشا بالإسكندرية اقتصد من مصروفه خمسين مليما ودفعها للجنة اكتتاب الجامعة . ونحن نشكر هذا الشعور ونرجو الله تنميته فى الناشئة »

ولكن سياسة الإنجليز التى أشرنا إليها قد وضعت نصب عينيها دفن هذا المشروع قبل أن يظهر إلى الوجود . فأخذ رجالهم يحاربون هذه الفكرة القيمة بطرق شتى ويحاولون صرف المصريين عن تحقيق ما يجول فى أذهانهم فى هذا الصدد . وقد كتب لورد كرومر فى تقريره عن سنة ١٩٠٦ يقول « ... ولما كان إخراج هذا المشروع من القوة إلى الفعل يقتضى زمانا فإنى أشير على أصحابه أن يدرسوا تاريخ إنشاء المدارس الجامعة فى البلدان الأخرى ، ويبذلوا الجهد فى إفهام المصريين الغرض الحقيقى الذى يتولونه ، ويجدر بهم أيضاً إهمال الفكرة فى بعض التفاصيل الخاصة بالمشروع وأهمها تدبير الطلبة وتعيين اللغة التى تتخذ أساساً للتعليم ، وإعداد الأساتذة والمعلمين للجامعة فى المستقبل فهذه هى الأمور الجوهرية التى يحسن أن يدور البحث الأول عليها ، ويتلوها أمر الشؤون المالية وعلاقة الجامعة بنظارة المعارف والمدارس الفنية العالية ، وتأليف مجلس إدارة لها ووضع نظام لإدارة الطلبة والكلام إلى غير ذلك من الأمور التى تستحق النظر والاعتبار . »

بهذا أراد كرومر تثبيط الهمم وإضعاف العزائم ، فهو يشير على لجنة الجامعة بأن تبذل الجهد فى إفهام المصريين الغرض الذى كانت تتوخاه فى حين أنه هو كان يبذل الجهد فى محاربة هذا المشروع والقضاء عليه

ولما كان سعد زغلول هو الذى نهض بتشكيل لجنة الجامعة ، وهو الذى جد واجتهد فى الترويج لتلك الفكرة ، ظن كرومر أنه قادر على قبر هذا المشروع الجليل بإقصائه سعداً عن اللجنة

وأقدم على تنفيذ هذا الغرض فعين سعد وزيراً للمعارف فى سنة ١٩٠٧ فخلفه قاسم أمين بك الذى واصل الجهاد والكفاح . وقد أخذ حافظ إبراهيم يستحث الهمم بشعره ويلهب العواطف فمن ذلك قوله من قصيدة :

ذر الكتائب منشبها بلا عدد
ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا
أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا
حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ما علة عرضت
من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل إن جمحت
وأنذرت مصر بالويلات والحرب
ومن يوكل بالقسطاس بينكمو
حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يطل على الأفلاك يرصدها
بين المناطق عن بعد وعن كثب
بيت يذيقنا عما نثم به
سرائر الغيب عن شفافة الحجب
ومن يغز أديم الأرض ما ركزت
فيها الطبيعة من بدع ومن عجب
يظل يرشد من ذراتها نبأ
ضنت به الأرض فى ماض من الحقب
ومن يميط ستار الجهل إن طمست
معالم القصد بين الشك والريب

فـا لـكم أيهـا الأقوام جامعـة
إلا بجامعة موصولة النسـب

هكذا وقف حافظ مبيناً أهمية التعليم الجامعي وضرورته لمصر والمصريين، داعياً إلى تحقيق هذا المشروع الذي فيه حياة مصر قال:

ولا حياة لـكم إلا بجامعـة تـكون أما لطلاب العلا وأبا

وفي سنة ١٩٠٨ أوعز الخديو عباس إلى الأمير أحمـد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد) أن يرأس لجنة الجامعة فقبل ذلك ووقف جهده ووقته في العمل على إخراج تلك الفـكرة السامية إلى حيز الوجود كما أوعز الخديو إلى وزارة الأوقاف فقررت للجامعة إعانة سنوية قدرها خمسة آلاف جنيه

وفي ديسمبر من تلك السنة افتتح الخديو عباس الجامعة المصرية في حفلة أقيمت بمجلس شورى القوانين. وقد خرج تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية والفنية حاملين أعلامهم وساروا حتى وصلوا إلى مكان الاحتفال ووقفوا في انتظار قدوم الخديو

وقد ألقى الأمير (الملك) أحمد فؤاد خطاباً جاء فيه.

« ... وإنني أبتهل إليه تعالى أن يجعل هـذه الجامعة نافعة لطلاب العلم عموما ولشبيبتنا المصرية خصوصا. إذ أننا لم نقدم على هذا العمل الجسيم ولم نسهر الليالي بسببه إلا لترقية هذه الشبيبة »

ورد الخديو عباس مبدياً سروره واغتباطه لتحقيق هذا المشروع الوطني الجليل وختم كلمته بقوله « فباسم الفتاح العليم أعلن افتتاح الجامعة المصرية وأسأله تعالى أن يجعلها منهلا عذبا لطلاب العلم والعرفان على اختلاف الأجناس والأديان. »

وكان الطلبة على نوعـين : منتسبون ومستمعون فالطالب المنتسب هو الذي يواظب على حضور جميع المواد التي كانت مقررة، وهذا الطالب يدفع رسم قيد قدره ٢٤٠ قرشا يضاف إليها رسوم مكتبة قدرها عشرون قرشا

وكانت المحاضرات تلقى بعد الظهر من الساعة الرابعة والنصف إلى الساعة السابعة والنصف. أما مكان الجامعة فـكان بأحد القصور الواقعة في أول شارع قصر العيني من جهة ميدان الخديو إسماعيل (محل الجامعة الأمريكية الآن)

وقد بلغ عدد طلبة الجامعة بين مستمعين ومنتسبين في العام الأول من افتتاحها ٧٥٤ طالبا

وفي سنة ١٩٠٩ أنشأت الجامعة قسماً للسيدات وكانت المحاضرات تلقى فيه صباح يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع. وقد ذكرت إدارة الجامعة في إعلانها عن هذا القسم أن المحاضرات تلقى فيه في غير أوقات المحاضرات الخاصة بالطلبة ثم جاء في هذا الإعلان ما نصه :

« وزيادة على ذلك فإن الجامعة ناطت بسيدتين أوربيتين مقابلة السيدات اللاتي يرغبن في حضور هذه المحاضرات الخاصة بالسيدات بحيث لا يصادفهن أحـد من موظفي الجامعة ولا من الأجانب عند دخولهن وخروجهن . » هكذا أرادت الجامعة أن تطمئن السيدات على أنفسهن. وكانت السيـدة تدفع خمسة قروش في سماع محاضرة واحدة . وقد بلغ عدد المستمعات ثمانية وخمسين سيدة بين مصرية وأجنبية

وكانت الدراسة في الجامعة عبارة عن محاضرات تلقى في موضوعات شتى في الأدب وتاريخه والتاريخ الإسلامي وعلم الفلك عند العرب وآداب اللغتين الإنجليزية والفرنسية

وفي سنـة ١٩١٠ أنشأت الجامعة قسما خاصا للآداب والفلسفة

وبدأت بإنشاء فرع للعلوم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية

وقد بلغت نفقاتها السنوية في ذلك الوقت ٣٢٠٠ ج.م. هذا غير ما كانت تنفقه على الطلبة الذين أرسلتهم إلى أوربا للدراسة في الجامعات

وسمت الجامعة لدى الحكومتين الفرنسية والإيطالية لتقبلا في مدارسها أطفالا من سن ثماني سنوات إلى عشر لتنتخبهم الجامعة ليربوا ويتعلموا بمدينتي باريس وروما حتى يتموا الدراسة الثانوية وذلك على نفقة الحكومتين المذكورتين . وقد قبلت كل من الحكومتين ذلك فأرسلت الجامعة أربعة أطفال إلى فرنسا ومثلهم إلى إيطاليا

وفي هذا العام أعني عام ١٩١٠ منحت الجامعة أول دكتوراه فخرية للمستر روزفلت الرئيس السابق لجمهورية الولايات المتحدة

وفي سنة ١٩١١ احتفلت بعض جامعات أوربا بمرور مائة عام على تأسيسها . فدعت الأمير « الملك » أحمد فؤاد لحضور تلك

الاحتفالات بصفته رئيسا لأحدث جامعة . وكان رحمه الله كما ذكرنا يبذل جهدا جبارا في النهوض بالجامعة . وقد ذكر في تقريره عن سنة ١٩١١ ما نصه « — ولو كنا ممن يميلون إلى الاستعارات والتشبيهات لقلت إن من السهل تشييد الجامعة بتشييد تلك الأبنية الشاهقة والمعابد الشامخة التي يتبادر إلى الذهن أنها لا تتم أبدا لما تستدعيه من المعدات الهائلة المختلفة الأنواع ، غير أني أوثر العمل على زخارف الكلام المديم الفائدة وعلى تسليم أن عملي مؤسس على خيال فإني آمل أن يصبح بناؤنا يوما بعد عام مركزا لإعادة مجد العلوم والفنون في هذه البلاد ، وأن تكون خيالات اليوم حقائق الغد . » فالأمير (الملك) أحمد فؤاد كان عليما بالصعوبات الجمة الهائلة التي كانت تكتنف هذا المشروع وتحول دون قيامه . ولكنه لم ييأس بل آثر العمل في هدوء وسكينة متذرعا بالصبر ، متحليا بالعزيمة الصادقة ، مؤملا كما ذكر « أن تكون خيالات اليوم حقائق الغد » وقد تحقق ظنه وقدر له أن يرى في مصر جامعة عظيمة مستكملة العدة قائمة على مكان في أجمل بقاع مدينة القاهرة وفي أبنية رائعة فخمة . وهذا هو الحلم الذي كان يراود القائمين بأمر الجامعة حينما افتتحوها في منزل صغير قديم وحينما كانت الجامعة مجرد قاعة لإلقاء محاضرات في بعض المواد

وفي سنة ١٩١٤ تبرعت الأميرة فاطمة إسماعيل للجامعة بتسعة عشر فدانا من أجود أراضيها في الجيزة كما تبرعت بجواهر تبلغ قيمتها ٣٦ ألف جنيه ؛ ففكرت الجامعة في إقامة بناء على تلك الأرض

وفي ٣٠ مارس سنة ١٩١٤ وضع الخديو عباس الحجر الأساسي لمباني الجامعة . وفي سرادق الاحتفال غنى المطرب زكي عكاشة قصيدة شوقي التي مطلعها

يابارك الله في عباس من ملك وبارك الله فيكم آل عباس

ولكن قيام الحرب العظمى الأولى قضى على فكرة بناء أمكنة للدراسة وتعرضت الجامعة للافلاس واضطرت إلى استدعاء بعثاتها من أوربا بعد أن انعدمت التبرعات

وفي سنة ١٩١٤ منحت الجامعة أول دكتوراه علمية للطالب طه حسين (بك) بعد أن جرت فيها أول مناقشة علنية برياسة الشيخ الخضري وقد حضرها جمهور كبير من الطلبة والأساتذة

وفي عام ١٩١٥ فكرت الحكومة في إنشاء جامعة . وفي ٢٧ فبراير سنة ١٩١٧ وافق مجلس الوزراء بصفة مبدئية على ما اقترحه وزير المعارف من إنشاء جامعة . وناط بوزارة المعارف إعداد مشروع لهذا الاقتراح فشكلت لجنة لهذا الغرض بقرار وزاري صدر في ٢٠ مارس سنة ١٩١٧ وقامت بالعمل في الحال وقدمت في ١٧ نوفمبر من تلك السنة تقريرها التمهيدي الأول متناولا الاقتراحات التي ترى العمل بها في وضع النظام الذي تقوم عليه الجامعة وبيان ما لرجالها والهيئات المكونة لها من الحقوق وما عليهم من الواجبات . ثم وقفت اجتماعات اللجنة مدة تزيد على سنتين من ٢٢ يناير سنة ١٩١٨ إلى ٢٤ مارس سنة ١٩٢٠ وفي ٤ يناير سنة ١٩٢١ رفعت اللجنة تقريرها إلى وزير المعارف

وقد كانت أغلبية أعضاء هذه اللجنة من الأجانب ، لذلك قررت أن تكون لغة الدراسة بالجامعة هي اللغة الإنجليزية أو الفرنسية

أما الأعضاء المصريون وكانوا ثلاثة فقد احتفظوا برأيهم وسجلوه في التقرير وهو تدريس المواد باللغة العربية

وقد بقي هذا المشروع في طي النسيان حتى شهر مارس سنة ١٩٢٥ إذ صدر مرسوم ملكي بإنشاء « الجامعة المصرية » وقد جرت مفاوضات بين الحكومة والقائمين على الجامعة القديمة . وانتهت هذه المفاوضات بضم الجامعة القديمة إلى الحكومة

ولم تكن الجامعة الذي صدر بها هذا المرسوم تشمل سوى أربع كليات وهي : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب

وفي ٧ يناير سنة ١٩٢٨ وضع المغفور له الملك فؤاد الحجر الأساسي لمباني الجامعة الحالية

ولعل من محاسن الصدف أن يكون الرئيس الأعلى لجامعة فؤاد الآن هو أول طالب حصل منها على شهادة الدكتوراه

ونحن إذ نحتفل في ظل الفاروق حفظه الله بالعيد الفضي لجامعة فؤاد إنما نحتفل بانتصار إرادة الأمة على إرادة الطغاة المحتلين . لقد أراد المحتلون أن يحرمونا من التعليم العالي بل ومن التعليم